مهاتما غاندي

تلخيص تاريخه كما رواه بنفسه

بقلم اسرائيل مظهر

— ١ —

سورة للملخص

امبراطورية لا تغيب الشمس عن املاكها. فكرة الارض تحمل من الوانها الجغرافية زناراً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ولسطحها يخضع الابيض والاسمر والاصفر والنحاسي والاسود من سلالات البشر . وفي داخل املاكها تدين اقوام بسود من الاديان والوان من العقائد لا يحصرها العد ، ويُنطق بنفسات وألسنة تمثل ما بنبل الشمن لهجات اهل الارض في بابل القديمة . امبراطورية تسود البحار ، ومن ساد البحار ، فقد حاصر اليابسة او اذلّها في عصر كعصرنا قوام الحياة فيه الاتصال لا الانفصال . امبراطورية تقدّر ثروتها بالملايين وآلاف الملايين من الاصفر الرنان ، وتحصي مواردها بارقام يكاد يخيل اليك انها موهومة . وحير للحُسّاب ان يخترعوا طريقة حسابية لحصر تلك الموارد ، شبيهة بطريقة الفلكيين اذ يقيسون ابعاد الشموس والسيارات بالسنين النورية لا بالاميال الارضية .

هذه الامبراطورية يقيمها اليوم ويقعدها هيكل بشري من الدم واللحم والعظام، لا يزيد وزنه على وزن كرة مدفع من اصغر مدافع بريطانيا العظمى . واما هذا الهيكل البشري الضئيل فغاندي العظيم

كم من مرة في بضعة السنوات الاخيرة تحركت هذه الامبراطورية ، وأعدّت عدّتها

برّاً وبحراً ، كما يتحرك «أمفيان» لا تصوره الا الميثولوجيا القديمة ، استعداداً للقبض على غاندي لتضعهُ بين اربعة جدران من اللبنات المرصوصة . ولعمري ان هذا لابلغ ما يصل اليهِ الوهم الدنيوي . فان جسم غاندي النحيل ليس بشيء اذا هو حبس بين اربعة جدران من الحجارة او اربعة جدران من الفولاذ ، ما دامت روحهُ تظل محلقة في سماء الحرية الفسيحة فتكهرب جو الشرق ، بل جوّ الكرة الارضية ، لا جوّ الهند وحدها

اما تكون الامبراطورية البريطانية جديرة بعظمتها ، اذا هي استطاعت أن تسجن روح غاندي في «قفص» كما كان يسجن سليمان الجن والشياطين في خرافات الف ليلة وليلة ، ويمحو أثرها من الوجود فاما وروح غاندي تسبح في فضاء الحرية ، وتغذي الارواح الاخرى بمبادئها ، فاي أثر يمكن ان يحدثهُ سجن الهيكل الترابي ، في حجرة عرض جدرانها نصف قيراط او نصف ميل من حجارة او فولاذ ؟

على ان لهذا الهيكل الضئيل تاريخاً تكوّنت خلاله عناصر القوة والعظمة التي يمتاز بها غاندي

واكبر ميزة لهذا التاريخ انهُ يشهرك على غاندي في اطواره ، ويكشف لك عن كمالاته ونقائصهِ في صباه ، ثم تحوله في شبابه ، ثم قنوته وتسكه في شيخوخته . ومن هذا التاريخ تعرف كيف تكونت مع عناصر قوتهِ وعظمتهِ ، عناصر مبادئهِ السياسية التي استخلصها من عمليات ووقائع مشهورة ، لا من نظريات خاوية فارغة كثيراً ما خطها غيره من الزعماء على الورق او استخلصوها من التاريخ ، وكثيراً ما خاب حدسهم وغشهم التاريخ

فاذا انت استوعبت تاريخ غاندي العظيم امكنك ان تعرف كيف يكون أثر المبدإ من القوة اذ يتكوّن على مدى الدهر بعد ان تصقله الحوادث والكوارث ، وكيف يكون أثر المبدإ من الضعف والفساد اذ يعتد الى النظريات دون العمليات

اما هذا التاريخ فتلخصهُ تلخيصاً من كلمات غاندي نفسه ومن كتاب نشره رجل انجليزي من المعجبين بشخصهِ يدعى مستر «أندروز» . وقد كتبهُ وراجعهُ غاندي بنفسهِ وسوف نتوخى في التلخيص

طريقة الترجمة الحرفية لمقطوعات نتخبها من الكتاب ، بحيث تظهر تاريخ الرجل مفصلاً مطرداً بقدر ما تسمح بذلك الاحوال . فاذا اتسع المجال وتتابعت صفحات هذا التلخيص ، او تعاقبت في اعداد متتالية من المقتطف ، فعذرنا اننا نترجم عن حياة رجل هو اعظم امبراطوريات الارض ، بعد ان افلتت روحه من اقفاص الفولاذ والحجارة ، التي حاكتها من حوله أوهام القرن العشرين

المولد والسكن

الغانديون من طائفة « لبانيا » — Bania — والظاهر انهم كانوا في الاصل تجاراً يتعاطون التجارة في بيع السلع عموماً ، لا جملة . ولكنهم ظلوا منذ ثلاثة اجيال وزراء في كثير من مقاطعات « كاتياور » Kathiawar وكان جدي « أوتا غاندي » من الرجال الذين يقدرون المبادىء وقد اضطرته الدسائس السياسية ان يغادر « بوربندر » — Porbander — حيث كان « ديواناً » او رئيس وزراء ، وان يلجأ هارباً الى « جوناجاد » . فلما قابل « نواب » هذه المقاطعة حيّاه بيده اليسرى . ولما سئل عن سبب هذا ، قال — « ان يدي اليمنى قد قطعت لنواب « بوربندر » عهداً غير مخلوف »

وتزوج « أوتا غاندي » مرتين ، فكان له اربعة اولاد من زوجه الاول واثنين من الثانية . ولما كنت صغيراً لم اشعر مطلقاً بان اولاد « أوتا » كانوا غير اشقاء . اما خمس اولاده فكان كرمشاند غاندي ، ويسمى « كابا غاندي » كما كان سادسهم يدعى تولسيداس غاندي ، وكلاهما كان رئيس وزراء احدهما تلو الآخر . اما ابي « كابا غاندي » فكان رئيس وزراء « راجكوت » لعهد ما ، ثم رئيساً لوزراء « ڤانكانار » ولما مات كان يتناول معاشاً من حكومة « راجكوت »

وتزوج كابا غاندي اربع مرات على التوالي ، اذ كان يفقده الموت من يتزوجها في كل مرة . وكان له من زوجتيه الاوليين فتاتين من كل واحدة ، وأما زوجته الثالثة « پوتلباي » فقد اعقبت بنتاً وثلاثة صبية . كنت انا اصغرهم

كان والدي محبًّا لطائفته صادق القول شجاعاً كريماً ، ولكنه كان ضيق الخلق . ولم يكن زاهداً في الغرائز الحيوانية ، لأنه تزوج الرابعة وقد تجاوز الاربعين من عمره ، غير انه كان مستقيماً جدًّا طاهر اليد ، وكان معروفاً باستقلال رأيه وعدم تحيُّزه ، سواء بين اسرته ، ام بين الناس . اما خضوعه للحكومة فأمر معروف ذائع . تكلم احد رجال السياسة مرة قسًّا امير ، ولكن كابا غاندي ردَّ الباب بمثله ، ولما طبيعته ان يعتذر رفض الاعتذار ، فسُجن بضع ساعات ، ولم يفرج عنه الاَّ بعد ان رُؤي انه من العبث ان يثني « غاندي » عن عزمه

لم يحاول ابي ان يثري ، ولم يترك لنا من الحطام الا النزر اليسير . لم يتلق العلم ولم يتعلم ، اللهم الا ما تجود به تجربة الحياة على الناس . كان جاهلاً بالتاريخ وبالجغرافية غير ان تجاربه كانت كفيلة بأن تجعله قادراً على ان يحل اعوص المشكلات وان يسوس مئات من الرجال . لم يتفقه في الدين الا قليلاً ، غير انه استوعب تلك الثقافة التي تستوعب من كثرة التردد على الهياكل والمعابد وسماع المناقشات التي كانت تدور حول الدين الهندوكي . وفي اواخر ايامه بدأ يقرأ «الغيتا» — The Gita — على برهمي مثقف من اصدقاء الاسرة ، واعتاد ان يردد بعض مقطوعات دينية جهراً خلال صلاته

***

اما الاثر الذي تركته ابي مطبوعاً في خيالي فأثر الزهد والقداسة . كانت متدينة شديدة التدين ، حتى انها لم تكن تأكل وجباتها اليومية من غير ان تؤدي صلاة حارة كلها تعبد وقنوت . اما زيارتها للمعبد فكانت من الواجبات اليومية الضرورية . ولا اتذكر ، على قدر ما تصل اليه ذاكرتي ، انها اهملت يوماً صيامها الديني ، حتى ان المرض لم يكن سبباً في ان تفرط في هذا الواجب المقدس . مرضت مرة مع حلول الصوم ، غير ان المرض لم يكن ليخل بالنظام ، او يؤثر في القيام بالواجب الابدي . ولم يكن ذا بال لديها ان توالي الصيام اياماً ، بل كانت تكتفي بوجبة واحدة في اليوم ، ما دامت صائمة . وكانت تنذر في بعض الاحيان ان لا تأكل الا اذا طلعت الشمس من خلال الغيوم ورأتها بعينها . وكنا ونحن اطفال نقف في مثل تلك الايام متطلعين الى السماء ، وكنا نخوف بأن يكون اول من يبشر امه ببزوغ الشمس من خلال السحب الثقيلة . وبلاد الهند خلال فصل الامطار ، لا ترى الشمس الا غراراً . ولا ازال اذكر اياماً كنت اهرع فيها الى ابي حالما تظهر الشمس بعد هطول الامطار لأبشرها بالنبأ العظيم . فكانت تخرج لتراها بعينيها . ولكن الشمس الطريدة تكون قد توارت وراء الغيوم قبل ان تكتحل عيناها برآها ، فتطوى صائمة وقد تقول — « غير مهم : ان الله لا يريدني ان آكل » . ثم تمضي الى شؤونها وواجباتها كأن لم يكن شيء

وكانت ابي ذات قدرة في الحكم على حقائق الاشياء . وكانت محيطة بأحوال الحكومة حتى ان نساء الحاشية كن يقدرن فيها الذكاء . كنت اصاحبها في زيارتها متخذاً من طفولتي عذراً ، ولا ازال اذكر مناقشات كلها فطنة وادراك تدور بينها وبين ارملة « ثاقور صاحب »

من هذين الابوين ولدت في «بوربانذار» في اليوم الثاني من اكتوبر سنة ١٨٦٩ . وهنالك قطعت طفولتي وذهبت الى المدرسة . لم احفظ جدول الضرب الا بكل صعوبة . والحقيقة اني لم اتعلم في هذا الدور انا والصبية الذين كانوا يتعلمون معي من شيء ، اللهم الا ذم المعلم . والظاهر ان عقلي في ذلك العهد كان ضعيفاً ، كما كانت ذاكرتي بقة غير ناضجة

كان عمري سبع سنوات لما ترك ابي «بوربندار» الى «راجكوت» ليكون عضواً في الحاشية. فألحقني بمدرسة ابتدائية، فكنت فيها كما كنت في الاولى تلميذاً عادياً متوسط القدرة. غير اني لم اصل الى الثانية عشرة حتى كنت في مدرسة عليا. ولا اتذكر خلال هذه الاثنى عشر عاماً من عمري، على طفوليتي، اني كذبت مرة واحدة، سواء على معلمي او على اخواني في التلمذة. وكنت خجولاً جداً، متباعداً عن مرافقة الناس. وكانت عادتي ان اكون بباب المدرسة عند ما تدق ساعة البدء في الدرس، وأعود الى المنزل توًّا بعد الانصراف. وكنت اقطع المسافة من المدرسة الى البيت عدْواً، لاني لم اكن احتمل ان اتكلم مع اي انسان كما كنت لخاف ان يهزأ بي اي شخص كان

* * *

وقعت حادثة خلال دراستي لا بأس بذكرها. كان مستر «جيلز» — Mr. Giles — مفتش التعليم قد وفد مرة ليفتش. فأملى علينا خمس كلمات ليعرف مقدار علمنا بالهجاء (في اللغة الانكليزية) فأخطأت في تهجية احداها وأراد المعلم ان ينبهني الى ذلك بطرف حذائه ولكني تعمدت أن لا انتبه، لاني شعرت بأنه ليس في مقدوري ان اغش التهجية من صحيفة جاري، ولان من واجب المعلم ان يحول دون الغش في الامتحان. وكانت النتيجة ان جميع التلاميذ استطاعوا ان يكتبوا كل الكلمات صحيحة ما عداي. انا وحدي كنت بليداً. وكثيراً ما حاول المعلم ان يعرفني عن هذه البلادة ولكن عبثاً. لان الشيء الذي لم يكن في مستطاعي أن أتلقه

على أن هذا الحادث لم يكن من شأنه ان ينزل قدر معلمي في عيني أو يقلل من احترامه في قلبي. فقد كنت بطبعي اعمى عن ان اعد نقائص الذين هم اكبر مني سناً. ولقد علمت بعد ذلك كثيراً من نقائص هذا المعلم. غير ان احترامي له ظلّ كما كان. لاني شببت على ان اطيع اوامر من هم اكبر مني، لا ان اعدّ معايبهم

حادثتان أخريان في ذلك العهد لا تزالان عالقتان بذاكرتي. كانت عادتي ان انصرف عن قراءة اي شيء خارج عن مجال درسي. وكنت انجز درسي اليومي دائماً. لاني كنت امتعض من ان يكلفني استاذي بواجب عملي، كما كنت اكره ان اغشه. كنت انجز دروسي، ولكن عقلي كان دائماً بعيداً عنها. كنت انجزها غائب العقل ذاهلاً عنها. ولكن ما دمت قد انجزتها كيفما كانت الحال، فلا عقاب بتكليف بواجبات اخرى. غير اني بصدفة ما وقعت عيني على كتاب اشتراه ابي. كانت رواية تدور حوادثها على ولاء «شرافانا» لابويه، فقرأته بمنتهى ما يصل اليه الاعجاب وتذهب اليه اللذة. وفي ذلك الحين هبط منزلنا بعض

الباقين المتحولين ، فرأيت فيما رأيت مجسم صورة تمثل «شراڤانا» يحمل في حالة معلقة في كتفيه ابويه الاعميين في هجرة طويلة ازمعاها . ولقد ترك الكتاب والصورة في ذهني اثراً لا يمحى — قلت في نفسي — « هوذا مثال تحتذيه » ولا يزال حيّاً في ذهني رثاء ابويه على موته ولوعتهما على فقده . ولقد هزّني النّظم من اعماقي فحفظتهُ ، ولخذت اعزفهُ على « كونشرتينا » (١) Concertina اشتراها لي أبي

والحادثة الثانية تتعلق كهذه برواية : حصلتُ من ابي على اذن بان اشهد رواية تمثيلية يدعى بطلها « هاريشاندرا » . ولقد ملكت مني هذه الرواية كل نواحي قلبي ، وسكنت معانيها في قرارة نفسي ، حتى لقد اخذت أتساءل « لماذا لا يكون كل الناس صادقين مثل هاريشاندرا »؟ إتّباع الحق والبحث عن الحقيقة مع احتمال كل المحن والآلام التي تحملها « هاريشاندرا » ، كان الوحي الوحيد الذي بعثتهُ هذه الرواية في نفسي . ولقد اخذت اعتقد في حقيقة «هاريشاندرا» كما لو كان شخصاً حيّاً لا شخصاً خياليّاً ، كما ايقنت بحقيقة وقوع الحوادث التي حاكها المؤلف من حوله

وكثيراً ما كنت ابكي كلما ذكرت هذا البطل وحوادث حياته السامية . هاريشاندرا وشراڤانا لا يمكن الاّ ان يكونا بطلين تاريخيين لاخياليين . ولا اشك مطلقاً في اني لو قرأت هاتين الروايتين اليوم لهزتا عواطفي بالقدر الذي هزتاها به في أيامي الاولى

لا بدّ لي في سياق كلامي هذا من أن اجرع بضعة جرعات مريرة ، اذا ما كنت من عباد الحق على الوجه الاكمل . وأول ما أبدأ به هو أمر زواجي وانا في الثالثة عشرة من عمري . ولا جرم اني اغبط الشبان الذين اراهم اليوم من حولي وقد استطاعوا بحكم الزمان ان يفرّوا مما وقعت فيه وأنا في سنهم

كنا ثلاثة اخوة . تزوج الاول . ثم صمم كبراء الاسرة على أن يتم زواج أخي وزواجي وأحد أولاد اعمامي معاً في يوم واحد . لم يفكروا في مصالحنا ولا اعاروا رغباتنا اهتماماً ، كأنّ الامر لا يتعلق الاّ بمرضاتهم وبمقدرتهم المالية على اتمام الزواج . وزواج الهندوكيين ليس بالامر السهل ، بل معناه ان اسرتين قد يعانيان في سبيله الخراب ضياع في المال والوقت ، واشهر تقضى في اعداد الملابس وادوات الزينة وتهيئة « ميزانيات » من الاموال لاقامة الولائم . وكل من الاسرتين تحاول ان تبز الاخرى اسرافاً وتنويعاً في مظاهر الفرح والسرور . وكان ابي وعمي كلاهما كبير السن ، وكنا آخر من يزوجان من أولادهم ، فاسمعنا في الاسراف بفكرة ان هذا آخر افراحهما

(١) آلة موسيقية يعزف عليها مصري واحد على ما اعرف

لم نعرف نحن من الامر شيئاً الاّ أن هنالك افراحاً تقام وزينات وغناء ورقص وملابس جديدة وولائم فخمة وبنات غريبات عنا أتين للنهر بهنّ

قلت من قبل اني كنت تلميذاً ، وظلت تلميذاً بعد زواجي . كنت انا وأخوي ندرس في مدرسة واحدة . فلم يكن للزواج من أثر في حياتنا المدرسية الاّ ضياع سنة من اعمارنا ذهبت بدداً . وكم من شباب الهند يقاسون نفس هذه الخسائر الفادحة . على اني مضيت بعد ذلك في الدرس ، وكنت متوسط الذكاء والقوة ، غير اني كنت حائزاً على الدوام لرضى اساتذتي وعطفهم . وكنت لا احتمل اللوم ولا التوبيخ . عوقبت مرة عقاباً بذنب ، فبكيت بمرارة ، لا اذكر اني بكيت مثلها في كل اطوار حياتي

***

كنت امقت الالعاب الرياضية ، وكنت لا أذهب اليها الاّ مرغماً لانها اجبارية . غير اني اعتقد الآن ان من الواجب ان تكون من المواد الاساسية في برامج التعليم . اما سبب مقتي لها ، فيرجع الى رغبتي الشديدة في ان اقوم بتمريض أبي ، وكان على فراش المرض وقد قربت نهايته . فكنت اترقب انقضاء الدروس لاهرع الى المنزل وابقى بجانبه اعتني به وامرضهُ واتفقد اوامره بكل دقة وعناية . فكانت الالعاب الرياضية تحول دون هذه الرغبة ، ولذلك توسلت الى مستر « جيمي » ان يعفيني منها ، لاقوم بواجبي نحو أبي ، غير انهُ لم يعبأ بتوسلاتي . وكان من الواجب ان اذهب في الساعة الرابعة من كل سبت الى المدرسة لتقوم بتمريناتنا الرياضية ، ولم يكن معي ساعة اضبط بها الوقت ، وغشتني السحب واضطراب الطقس

وكان التلاميذ قد تركوا المدرسة قبل ان أصل اليها . ففي اليوم الثاني لاحظ مستر « جيمي » اني كنت غائباً ، ولما اعتذرت اليه عما حدث تماماً ، رفض ان يصدقني ، وفرض عليّ غرامة صغيرة كعقاب لي

لقد اتهمت بالكذب ! فآلمني هذا الاتهام كل الألم ؟ وكيف استطيع ان اثبت براءتي ؟ لم يكن من سبيل الى ذلك . فبكيت بحزن عميق . ولكن لم يلبث أن طرأ على ذهني ان الرجل الصادق يجب ان يكون ذا عناية بامور . وكان هذا الحادث آخر عهدي باهمال اي شيء يتعلق بمدرستي ودرسي . ولكني لم يهدأ لي بال الاّ بعد ان رفعت عني الغرامة التي فرضت عليّ تلقاء اهمالي ، لا تلقاء كذبي

« البقية تأتي »